البيئة العباسية وأثرها على اللغة الشعرية العباسية

د.محمد محمود علي العمرو

د.عماد علي سليم الخطيب

جامعة العلوم الإسلامية العالمية عمان

الملخص:

يعد الشعر العباسي نقطة تحول في الشعر العربي القديم ، وقد واجه الشاعر العباسي صعوبة كبيرة في باب الاعتراف بطريقته الشعرية ، ولا سيما مع النقاد الذين راحوا يؤلفون كتباً حول أخطائهم ، فجاءت دراستنا محاولة إثبات أن الشعر العباسي يحتل شكلاً من أشكال التأثر بالبيئة العباسية ، فالشاعر إنما يحاكي جميع أشكال البيئة العباسية من حضارية وثقافية وعلمية واجتماعية ومعمارية وطبيعية ، وجميع أشكال العلوم ، وحاولنا إثبات ذلك من خلال شاعرين من شعراء البديع هما: أبي تمام ، وابن المعتز ، فحاولنا من خلال لغتهما إثبات أن لغتهما لصيقة بالبيئة العباسية.

Abstract

Abbassi poetry considered as a turning point in the classical Arabic poetry. The Abbassi poet had faced a big problem in verifying his method in writing poetry especially with these criticals whom started writing books talking about Abbassi poetry falls. This study is an attempt to prove that the Abbassi poetry is one of the effects of Abbassi lifestyle.

The poet goes with the all Abbassi lifestyles، civilization, education, science, social,architects and natural. And all types of sciences. The researcher tries to prove that by studying the poetries of two Abbassipiets: Abu Tammany and IbnAlmuataz.the researcher tries to prove that their language is very close to the Abbassi lifestyle.

ـ المقدمة: يعد العصر العباسي عصر ازدهار ثقافي وعلمي وحضاري ، قد تجلت هذه الأركان في جميع أشكال الحياة العباسية ، حيث الشكل المعماري والتفنن في تزيين المنازل والحدائق الملحقة بالمنازل وماحوت من نوا فير وأنهر ماء تجر إليها ، وقد رأينا أثر المدنية الناتجة عن الحضارة الجديدة تصل إلى جميع

أشكال الحياة حتى اللغة ، إذ بات المجتمع العباسي بتطوره لا يطيق اللغة البدوية بما فيها من وحشي وحوشي ، حتى أن الشاعر العباسي بدأ يثور على شكل القصيدة العربية التي ترتبط بالبداوة والصحراء ، فراح يستبدل الطلل بالبساتين والخمريات وغيرها بما يتناسب مع طبيعة الحياة العباسية ، فهل أثرت هذه الحياة بنمطها الجديد على اللغة العباسي التي راحت تكثر من فن أطلقوا عليه اسم البديع؟

لقد تناولنا في بحثنا هذا عرضاً مجملاً للحياة الاجتماعية العباسية ، وما طرأ عليه من تطور بسبب انصهار الأمم والشعوب فيها ، وانعكاس ذلك على الحضارة العربية والإسلامية ، في جميع أشكال الحياة العلمية والثقافية والحضارية ، ثم تعرضنا إلى اثر هذه الحياة بنمنماتها ونسيجها على الشكل اللغوي في القصيدة ، ولا سيما قصيدة البديع التي راحت تهز المجتمع العباسي بطريقتها الجديدة ، واحتدام بسببها الصراع بين النقاد والشعراء ، وكان على رأسهم شاعرنا الذي تناولناه في القسم التطبيقي ، وهو أبو تمام ، بالإضافة الى شاعر عاش في خضم هذه البيئة العباسية المترفة ، وهو الشاعر الأمير ابن المعتز.

. ملامح الحياة الاجتماعية في بغداد:

انتقلت الخلافة إلى البيت العباسي بواسطة زعامة الفرقة الكيسانية التي أسسها محمد بن الحنفية ، وبعد وفاته آلت إلى ابنه أبي هاشم الذي توطدت العلاقة بينه وبين ابن عمه محمد بن علي بن عبدالله بن العباس ، وحين دنت وفاته أوصى بخلافة الفرقة إلى محمد بن علي ، وبهذا الشكل انتقلت زعامة

. الفرقة من البيت العلوي إلى البيت العباسي[1].

لقد اختار محمد بن علي بن عبدالله بن العباس أن يكون مقر دعوته في خرسان ، وذلك لأن القلوب فيها خالية من حب أي قائد من قادة المسلمين الكبار ، كأبي بكر وعمر ﷺ .اللذين استحوذا على قلوب المسلمين في مكة والمدينة ، وسواهما من العالم الإسلامي ، أضف إلى ما سبق انزعاج أهل خرسان وسائر الأعاجم من حكم بني أمية الذي كان يقرب العرب ويقصي الأعاجم ، وبذلك استطاع العباسيون الوصول إلى الحكم ، وجعلوا حاضرتهم في العراق[2].

([1])انظر: شوقي ضيف العصر العباسي الأول ، دار المعارف ، مصر ص15.

([2]) انظر: المرجع السابق ، ص 15 ، وانظر كذلك: محمد الخضري ، الدولة العباسية ، مكتبة الإيمان ، المنصورة ، ص16 .17 ، وانظر كذلك: حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، منشورات المكتبة البوليسية ، بيروت ، ط12 ، 1987م ، ص 349.

لقد قام العباسيون بإطلاق أيدي الخرسانيين في الحكم ، وقد كان هذا الإطلاق شكلاً من أشكال رد الجميل لهم ، إذ أصبح الوزير الفارسي صاحب سيادة ورياسة ، أما العنصر العربي فقد تأخر ، وبذلك كانت الدولة العباسية من هذه الوجهة مغايرة للدولة الأموية ، وأصبح العرب كسائر الأعراق التي شكلت الدولة العباسية من حيث المكانة ، إذ لا فضل لهم ، وتحولت بذلك وجهة الدولة من البحر المتوسط إلى شطر فارس ، وأدخل الفرس على العرب سياسة الحكم المطلق ، وجعلوا قصور الخلفاء العباسيين في بغداد أشبه بقصور الأكاسرة في المدائن[1].

لقد أصبحت الدولة العباسية في زمن وجيز تمتد من إفريقيا غرباً إلى الهند والصين شرقاً ، وبدأ الموالي يعتزون بأنفسهم ، وينادون بأن لا فضل للعرب عليهم لأنهم أقدم حضارة وأعرق نسباً وسلطاناً ، وأخذت شوكتهم تقوى حتى ظهرت حركة الشعوبية عند الفرس[2].

وقد قسم الأعاجم المجتمع العباسي إلى طبقات ، احتل الفرس فيها الطبقة الأولى بادي الأمر ، حيث كانوا عماد الدولة ، وعماد النظام السياسي والإداري وكانت لهم منزلة رفيعة ، وتلاهم الأتراك ، ولا سيما بعد أن قربهم المعتصم واصطفاهم ، فزاد خطرهم ، وأصبحوا أصحاب نفوذ في الخلافة ، على أنهم لم يتميزوا إلا بسمة النظافة والجمال ، وحب الجندية والفروسية[3] ، وخير من وصف الأتراك الجاحظ في رسائله حيث قال: وإذا سار الترك في غير عساكر الترك ، فسار القوم عشرة أميال سار عشرين ميلاً ، لأنه ينقطع عن العسكر يمنة ويسرة ، ويسرع في ذرى الجبال ، ويستبطن قعور الأودية في طلب الصيد ، وهو بذلك يرمي ما دبّ ودرج وطار ووقع[4].

ثم يأتي الروم الذين كثروا في بيوت السادة والمترفين ، وكان منهم الغلمان والجواري ، وأخيراً الزنوج الذين يحضرون من سواحل أفريقيا الشرقية ، وكانوا يجلبون للعمل في الزراعة والصناعة وبيوت الطبقة الوسطى[5].

(1) انظر: حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ص 350.
(2) انظر: شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ص 74 .75 ، وانظر كذلك: أمين أبو الليل ، ومحمد ربيع ، العصر العباسي الأول ، دار الوراق للنشر والتوزيع ، عمان ، 2009م ، ص 25.
(3) انظر: أمين أبو الليل ، ومحمد ربيع ، العصر العباسي الأول ، ص26.
(4) الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، تحقيق: عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، 1991م ، ج1 ، ص 49.
(5) انظر: أمين أبو الليل ، ومحمد ربيع ، العصر العباسي الأول ، ص26.

لقد شهدت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي امتزاجاً كبيراً بين الحضارات والأعراق من جهة ، ومن جهة أخرى اتسم هذا العصر بالحضارة والثراء والترف ، ولا سيما في قصور الخلفاء والأمراء والوزراء والقادة ، إذ حملت الأموال إلى خزائن الدولة من كل الجهات ، وكانت تلك الأموال المعين المغدق الذي ينضب ، وقد هيأت هذه الأموال كل وسائل الترف في مناحي الحياة ، وظهر أثر ذلك واضحاً على الأدباء عامة والشعراء خاصة ، إذ لبسوا الوشي والمقطعات الحريرية ، ولبس المغنون قطوع الديباج والخز ، واستكثروا جميعاً من العطور وأنواع الطيب الغالية ، وبالغت المرأة في زينتها وأناقتها ، ولعل امرأة لم تبلغ من التأنق ما بلغته زبيدة زوج الرشيد[1] وانتشرت العادات الفارسية في المجتمع من حيث تنسيق البيوت وبناء حجرات الجلوس والنوم والمعيشة ، حتى أن العرب احتفت بأعياد الفرس ، كالنيروز ، ويوم المهرجان[2].

أما البيت البغدادي فأبرز ما يميزه كثرة الشرفات التي تلحق بها بعض البساتين وبعض النافورات والبرك ، وكانت مصاريع الأبواب تصنع من الخشب المحلى بالنقوش ، وتصنع النوافذ من الزجاج الملون ، وتزخرف الحيطان بالنقوش المستوحاة من الطير والحيوان والأزهار ، وقد يذهّب السقف والأبواب وتعلق هنا وهناك ستائر الحرير ، وقد تحفر على الحيطان بعض الصور كالعنقاء أما الدار فكانت تموج بالبسط الإيرانية والأرمينية ، ومناضد الأبنوس ، وتماثيل العقيان[3].

وإذا ما انتقلنا إلى نوعية الطعام والشراب ، فجل تلك الأصناف كانت فارسية ، وقد حشد الجاحظ في كتاب البخلاء عدداً كبيراً من الأطعمة كالسباج ، وهو لحم يطبخ بخل مع شيء من الزعفران لتطيب رائحته ، والطباهج وهو لحم وبيض وبصل ، أما الحلوى فمنها الفانيذ ، وهي مكونة من الدقيق والسكر والسمن ، والخشكنان وهو كعك يحشى بالجوز والسكر[4].

ومقابل هذا الحياة المترفة عند الطبقة العليا في المجتمع العباسي ، فقد عبر أبو العتاهية عن حياة شعب بائس يئن تحت أثقال الفقر وشظف الحياة[5]، يقول

(1) انظر: سامي يوسف أبو زيد ، الأدب العباسي ، دار المسيرة ، عمان ، 2011م ، ص 21.
(2) انظر: أمين أبو الليل ، محمد ربيع ، العصر العباسي الأول ، ص 27.
(3) انظر: شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ص45.
(4) انظر: الجاحظ ، البخلاء ، اعتنى به: مصطفى شيح مصطفى ، مؤسسة الرسالة ناشرون ، بيروت ، 2006م ، ص 180.
(5) انظر: شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ص250 .251.

يقول أبو العتاهية:[1].

إني أرى الأسعار أسعار الرعية غالية
وأرى المكاسب نزرة وأرى الضرورة غاشية
وأرى غموم الدهر ئحة تمر وغادية
وأرى اليتامى والأرا مل في البيوت الخالية
من بين راج لم يزل يسمو إليك وراجيه
من مصيبات جوع تمسى وتصبح طاوية
من البطون ت وللجسوم العارية

يتضح من شعر أبي العتاهية أن الشعب يعيش حياة الفقر والجوع ،

وهذا الجوع كان عاماً حتى أنه طال اليتامى والأرامل ، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على مقدار ما وصل إليه المجتمع العباسي من طبقية مقيتة ، إضافة إلى عدم وجود نظام تكافل اجتماعي يضمن لليتامى والأرامل حق العيش الكريم ، ويشير أيضا إلى عدم تحقيق أهداف الثورة العباسية التي كانت تدعو إلى المساواة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن العصر العباسي قد شهد اهتماماً كبيراً بالجواري ، فقد تم تعليمهن وتثقيفهن ، وجرت العادة أن يقوم الخلفاء بامتحان ثقافتهن ، فاشتهرن بنبوغ الشعر وسرعة الجواب وحضور البديهة ، ولقد ساهمن إلى جانب ما مضى في نشر المجون والخلاعة ، حتى قيل إن بعض الجواري قد سيطرن على بعض الخلفاء ، وتدخلن في شؤون السياسة[2].

ونظراً لما سبق فلا غرابة إذن أن نجد جلّ خلفاء بني العباس هجناء أبناء إماء وجوار ، فالمنصور أمه بربرية ، والمأمون أمه فارسية ، والمعتصم والواثق والمتوكل والمستعين من أمهات تركيات ، حتى إن هناك من قال: إنه ليس هناك في خلفاء بني العباس من أبناء الحرائر إلاّ السفاح والأمين ، أما سائر الخلفاء فأبناء إماء[3].

لقد كانت هذه طبيعة الحياة العباسية ، فكيف إذا عرفت أن بعض خلفاء بني عباس الذين كانوا يعيشون في نعيم الحياة التي ذكرنا بعضاً من خصائصها

(1) أبو العتاهية ، الديوان ، دار صادرو دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 1964 ، ص487.
(2) انظر: مصطفى بشير القط ، مجالس الأدب في قصور الخلفاء العباسيين ، دار اليازوردي العلمية للنشر والتوزيع ، عمان ، 2009 ، ص 244 وما بعدها.
(3) انظر:المرجع السابق ، ص 244.

ينظمون الشعر؟ وكيف نتوقع أن تكون لغتهم؟ وكيف إذا عرفنا أن الجواري هن المحرك للمشاعر الدافعات لنظم الشعر؟

لا شك أن هذه الحياة المترفة التي انعكست بطبيعتها على جميع شؤون الحياة المعمارية والتجميلية التزيينية ، إضافة إلى الحياة العلمية والثقافية التي انعكست بجمالياتها على جماليات الأدب العباسي ، ولا سيما لغة البديع الذي يعد شكلاً من أشكال تطور اللغة العباسية ، وواحداً من أبرز خصائصها.

أما الجواري فقد شغف بهن كلٌّ من الخلفاء والأمراء والوزراء والقادة إضافة إلى الشعراء ، فقد تمكّن من قلوبهم جميعاً ، وتركن فيهم أبلغ الأثر من أحاسيس متباينة ، من حب وكره ، وصدود وإقبال ، وألم الشوق ولذة الوصال ، لوعة والفراق وفرحة التلاقي ، ونحن في هذا الصدد نجد كثيراً من تلك الأشعار بسبب هذه الحوادث المختلفة[1] ، فقد كان للمهدي جارية شغف بها وهي كذلك إلاّ أنها تتحاماه كثيراً ، فدس إليها من عرف ما في نفسها ، فقالت: أخاف أن يملّني ويدعني فأموت ، فقال المهدي في ذلك:[2]

ظفرت بالقلب مني	غادةٌ مثل الهلال
كلما صح لها ود	ي جاءت باعتلال
لا لحب الهجر منى	والتأنى عن وصال
بل لإبقاء على حبى	لها خوف اعتلال

لقد اشتهر من الجواري بنبوغ الشعر جارية المأمون تتريف ، فكانت من مولدات البصرة بارعة الجمال والحسن ، بديعة الظرف موصوفة بالكمال ، وكانت تقول الشعر ، فوصفت للمأمون فاشتراها فوقعت بقلبه وقدمها على سائر حظاياه ، ولما مات المأمون وفت له ، وقصرت نفسها على البكاء عليه واشتد جزعها ، وأقبلت ترثيه وتنوح عليه حتى ماتت[3] ومن شعرها:[4]

([1]) انظر:المرجع السابق ، ص 265.

([2]) جلال الدين السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق: ياسر رمضان ، ومحمد سيف ، دار عالم الثقافة للنشر والتوزيع ، عمان ، 2006م ، ص 178.

([3]) انظر: مصطفى بشير القط ، مجالس الأدب في قصور الخلفاء العباسيين ، ص 256.

([4]) جلال الدين السيوطي ، المستطرف من أخبار الجواري ، تحقيق: أحمد عبد الفتاح تمام ، شركة الشهاب ، الجزائر ، 1991م ، ص 65.

إن الزمان سقانا من مراراته بعد الحلاوة أنفاساً فأروانا

أبدى لنا تارة منه فأضحكنا ثم أثنى تارة أخرى فأبكانا

إنا إلى الله فيما لا يزال لنا من القضاء ومن تلوين دنيانا

وينبغي علينا الإشارة في هذا الباب إلى الثقافة التي ضمتها الدولة العباسية ، فدولة ضمت بين جناحيها أمماً وأعراقاً كثيرة لا بد لها من حياة علمية وثقافية وحضارية مزدهرة ، ويكفي أن ننظر إلى العلوم والآداب التي نقلت إلى العربية ، لنعلم الحالة العلمية والثقافية والحضارية السائدة في هذا العصر ، وكيف انصهرت في بوتقة عربية إسلامية؟

لقد ساهمت ثلاثة حضارات في صياغة الثقافة العباسية ، فكان العقل اليوناني هو أول عقل ساهم فيها ، وكان ميالاً إلى فلسفة التحليل والتعليل ، وكذلك كان يميل إلى المعنويات أكثر من ميله إلى الماديات ، لذلك كان يذهب إلى التعمق والعلم ، أما العقل الثاني فقد كان الهندي وكان يميل إلى التأمل فهو شعري أكثر مما هو علمي. ففكره تصويري خيالي تمثيلي ، شديد الاتصال بالعاطفة ، لهذا كان العقل الهندي من البواعث الكبرى على الحكمة والمجاري الزهدية والقصصية عند العرب ، أما العقل الفارسي فهو وعاء حوا العالم القديم كله تقريباً ، فكان مؤلفاً من عنصر فارسي ويوناني وهندي ، والأثر الهندي في الثقافة الفارسية أوسع من الأثر اليوناني ، إلاّ أن المادة قد غلبت على الحضارة الفارسية ، فكان العقل الفارسي من البواعث الكبرى على الزخرف والتضخيم وإطناب في الكلام والكتابة ، وتوسيع حقل الموسيقى وآلاتها ، وكان أثر الفرس واضحاً جلياً في الحضارة العباسية[1].

لقد كان العصر العباسي عصر امتزاج الثقافات الأجنبية بالثقافة العربية ، لهذا اهتم الدارسون والباحثون في دراسة دور الفرس في الثقافة العربية ، فاتفقوا على دور الفرس الاجتماعي والسياسي ، لكنهم اختلفوا في دورهم الثقافي ، وقد صنف يوسف بكار الدارسين لأثر الثقافة الفارسية في الثقافة العربية في ثلاث فئات ، الفئة الأولى: لا ترى للأدب الفارسي أثراً بعيداً في الأدب العربي ، وابرز من يمثلها طه حسين الذي يعد المسألة أسطورة قائمة على خطأ شنيع ، لأن العرب في العصر العباسي لم يكونوا تلاميذاً للفرس في كل شيء ، مع العلم أنه لم ينكر أثر

(1) انظر:حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ص 356.

الفرس في الحياة العربية[1] ، يقول طه حسين: ولكنني مضطر أن أعترف أننا حين نبحث عن الأدب الفارسي الذي أثر في الأدب العربي لا نكاد نجد شيئاً ، ... فأين الكتب التي ترجمت إلى العربية ، وأين الشعر الفارسي الذي ترجم وأثره في الشعر العربي ؟[2] .

ويمثل الفئة الثانية أحمد الشايب ومحمد مصطفى ، الأول أرجع كلَّ شيء إلى الفرس يقول : إن هذا النفوذ الفارسي السياسي يسَّر للثقافة الفارسية أن تتسرب إلى العقلية العربية الإسلامية ، فأخذت تبسط سلطانها حتى صار الأدب العباسي عامة أدباً جديداً ليس للعرب فيه إلاّ اللغة ، وأما موضوعاته وأساليبه وصوره فقد أخذت تستحيل في ظل السلطان الجديد وصار الأدب أجنبياً[3] ، أما الفئة الأخيرة فيمثلها أحمد أمين وشوقي ضيف ، وكانت هذه الفئة أكثر الفئات اعتدالاً ، فقد بين كلّ منهما ما للعرب من ثقافة وما للفرس أيضاً ، وقد ركز شوقي ضيف على أثر الثقافة اليونانية واعتبرها أهم الثقافات التي أثرت في الفكر العباسي[4].

لقد أدت العوامل السالفة الذكر إلى انفتاح الآفاق الثقافية والأدبية والشعرية ، ونشأ ما يعرف بالنزعة التجديدية ، وتجلت في هذا العصر مواضيع جديدة ، كالهجاء والزهد والشعر التعليمي ، ووصف الخمرة والثورة على القصيدة العربية التقليدية ، وأبرزت أيضاً قضايا جديدة مثل البديع الشعري ، الذي لا نكاد نشك في أثر الحياة التي تحدثنا عنها في ظهوره.

. البديع :

ـ البديع لغة: بدع الشيء ويبدعه بدعاً: أنشأه وبدأه ، والبديع: المحدث العجيب ، والبديع: المُبَدع وأبدعت الشيء: أي اخترعته لا على مثال ، المبتدع بالفتح والكسر وأبدع الشاعر جاء بالبديع ، وهذه المعاني تنتهي إلى أمرين:

.الأول: الجدة التي تدل عليها إنشاء الشيء ابتداء وعلى غير مثال سابق.

.الثاني: البراعة والغرابة التي يدل عليها العجيب[5] .

(1) انظر: يوسف بكار ، نحن وتراث فارس ، منشورات المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية ، دمشق ، 2000م ، ص9.

(2) طه حسين ، من حديث الشعر والنثر ، دار المعارف ، القاهرة ، ص18.

(3) أحمد الشايب ، العامل السياسي في أدب العصر العباسي الأول ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ، 1960م ، ص 25.

(4) انظر: يوسف بكار ، نحن و تراث فارس ، ص 11 . 12.

(5) انظر:ابن منظور ، لسان العرب ، مادة بدع

أما البديع اصطلاحاً: فهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقة الكلام لمقتضى الحال ورعاية وضوح الدلالة [1].

أما البديع العباسي فيعد شكلاً من أشكال البلاغة العربية ، فالعربية ليست نحواً وصرفا ، وإنما بيان وبديع ، وقد راح هذا الشكل الفني يأخذ شكلاً إبداعيا في العربية بعد انشغال العرب بالإعجاز القرآني ، ويعدونه شكلاً من أشكال الإعجاز الأمر الذي دفع عبد القاهر الجرجاني لتأليف أسرار البلاغة وإعجاز القرآن ، حتى باتت البلاغة أدوات منضبطة ، تتحول في يد الفنان إلى أساليب فنية تحمل طريقته في تشكيل مادته حسبما تسمح به خبرته الفنية التي هي موهبة وثقافة زمان ومكان وتجربة وممارسة ورؤية تبلور كل هذه العناصر مع مراعاة لخصوصية هذه الأدوات وطاقات كل منها [2] .

وبما أننا نتحدث عن العصر العباسي فلا بد أن نجد أثر البيئة العباسية واضحاً في الشعراء والأدباء كيف لا؟ وقد ارتبط هؤلاء المبدعون ببيئتهم العباسية زمانياً ومكانياً ، وانعكاس ذلك على لغة الأديب التي راحت تبلور تجارب الشاعر وممارساته ، ولا سيما أن اللغة ظاهرة اجتماعية يسري عليها ما يسري على أية ، ظاهرة أخرى من نشوء وارتقاء أو بقاء وفناء ، وهي كائن حي مرن يتشكل بحسب حاجة المتكلمين بها ، وأن التطور الحضاري ، وهو الذي يثري اللغة بالمفردات ويقوم التوليد والاشتقاق والتعريب بدور مهم في هذا المجال [3] وعليه فإننا نعترف بأن اللغة ليست ألفاظاً تنطق ، بل هي رموز تحمل تاريخ المجتمع وقيمه وعاداته ، وتقاليده ، ومشاعره ، ومن هنا تكتسب اللغة حياتها ونموها وتطورها[4] والدليل على أنها رموز لأن الرمز قابل للتغير عبر العصور ، وهذه خاصية تشكل اللغة العربية التي حفظها لنا القرآن الكريم فإننا نجد القرآن قد حفظ لنا اللغة بأساليبها وبلاغتها ونحوها وصرفها وأبقى لنا حق التجديد بما يتفق مع طبيعة حياتنا الاجتماعية التي تواكب عصرنا مع ضبطه ، ذلك لأن الإنسان كائن ينطبق عليه ما ينطبق على الكائنات من حيث الحياة والموت.

.بديع أبو تمام والبيئة البغدادية : يعد أبو تمام من شعراء العصر العباسي

(1) مختار عطية ، علم البديع ودلالات الاعتراض في شعر البحتري ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، مصر ، ص39.

(2) منير سلطان ، تشبيهات المتنبي ومجازاته ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ص 18.

(3) المرجع السابق ، ص 360.

(4) منير سلطان ، تشبيهات المتنبي ومجازاته ، ص 360.361.

الذين عرفوا بطريقتهم الغنية الإبداعية في نظم الشعر ، وقد دارت حوله معارك نقدية وأدبية كبيرة وقد ألف في طريقته الشعرية مؤلفات كثيرة تناولت أشعاره وبديعه ، وتحدثت عن أخطائه في صوره ، وعلى الرغم من ذلك فقد بقي أبو تمام شاعر العربية المتفوق المبدع صاحب طريقة عرف بها ، واستطاع أن يثبت هذه الطريقة ويجعل لها أنصاراً ومؤيدين ، فهل كانت هذه الطريقة الشعرية وليدة الصدفة أم هي وليدة بيئة عباسية حضارية فنية معمارية؟

لم يكن الشعر في هذه الفترة مترفعاً عن الناس ، أو معزولاً عن العالم ، وإنما كان كالمعمار وكالمنجزات العقلية ، يعطى اللمسة الشخصية للعصر والحضارة لقد كان الشعر أشبه بالعصر ، وبالتأمل وبالناس ، فكما كانت هناك مشقة للناس ، كانت هناك صياغة منسقة للشعر ، ولعل هذا هو الذي أعطاه ظاهرة التأني ، ومن ثم كانت ظاهرة الإكثار من البديع [1] فلم يكن البديع زخرفة أو تهتهة أو لعثمة ، وإنما هي لظروف خاصة بالحضارة والفترة من صميم البيئة الفنية [2]

وكما أشرنا فإن أبا تمام خير من يمثل هذا الاتجاه من حيث منهج القصيدة بل من حيث كيانها كله ، فحتى الصورة والموسيقى تبدو كأنها تشير إلى شيء رائع وإلى غاية لا تنتهي ، المهم أنها تحمل وجهة نظر الحضارة في بلاد الإسلام [3] فالشعر العباسي ما هو إلاّ شكل من أشكال الانعكاس الطبيعي للحضارة العباسية ، حتى باتت هذه اللغة وكأنها إنسان أو كائن تحمل في ثناياها صفحة الإحساس والحركة ، وكأنها أحياناً إنسان مرهف ، أو ثوب جميل أو أي مشهد من مشاهد الحضارة العباسية ، يقول أبو تمام:[4]

فتحُ الفتوحِ تعالى أنْ يُحيْطَ به نَظْمٌ من الشعر أو نثرٌ من الخطبِ

فَتْحٌ تفتح أبوابُ السماءِ له وتبرز الأرض في أبرادها القشبِ

لقد بنى أبو تمام النصر بناءً ، وجعل هذا البناء عالياً ، فارتفع ، وسما حتى بات الكلام بأطرافه الفنية المختلفة .شعراً ونثراً .تتقاصر أمام هذا البناء العظيم ، الذي راحت أبواب السماء تتفتح لشموخه ، والأرض تتيه فخراً به ، وتلبس أجمل ما عندها من ثياب جميلة ، لقد أخرج أبو تمام الكلمات من الدائرة

(1) عبدو بدوي ، أبو تمام وقضية التجديد في الشعر ، الهيئة المصرية العامة ، 1985 ، ص 9.10.

(2) المرجع السابق ، ص 6.

(3) المرجع السابق ، ص 7.

(4) أبو تمام ، ديوان أبو تمام ، تحقيق: شاهين عطية ، مراجعة: يونس الموصلي ، مكتبة الفؤاد الطلاب ، وشركة الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط1 ، 1968م ، ص 14.

المعجمية التي تعارفت عليها الناس ، وعرفت بها اللغة إلى دائرة استخدام فني بدا فيها أثر الحضارة العباسية جليّ ، وفي ضوء هذا يمكن القول بأنه لا يستشعر الجمال ، وإنما يدركه إدراكاً حاسماً وسريعاً [1] وعليه فإن اللغة ظاهرة اجتماعية يسري عليها ما يسري على أية ظاهرة أخرى من نشوء وارتقاء وفناء ، وهي كائن حي مرن يتشكل بحسب حاجة المتكلمين بها ، وأن التطور الحضاري هو الذي يثري اللغة بالمفردات [2]

لقد لعبت البلاغة في هذا العصر دوراً كبيراً في تشكيل المعاني وإبداعها ، بل وفي إخراجها من دائرة عادية تعبيريه إلى دائرة جمالية ، «فقد أصبحت البلاغة في هذا العصر أدوات منضبطة تتحول في يد الفنان إلى أساليب فنية تحمل طريقة في تشكيل مادتها حسبما تسمح به خبرته الفنية التي هي موهبة وثقافة زمان ومكان ، وتجربة وممارسة ، ورؤية تبلور كل هذه العناصر مع مراعاة خصوصية هذه الأدوات ، وطاقات كل منها [3] ، وارتباط الموهبة بالثقافة وارتباطها بالزمان والمكان ، وانعكاس ذلك على لغة الأديب التي راحت تشكل تجارب الشاعر وممارساته ، يقول الشاعر:[4]

كم بين حيطانها من فارس بطل قاني الذوائب من آني دَم شربِ
بُسنَّةِ السيف والحناء من دمهِ لا سُنَّةِ الدينِ والإسلام مُخْتضبِ

إن الممعن في هذه اللوحة الشعرية يرى فيها أثر الرسم من جهة ، وأثر البيئة العباسية الهندسية واللغوية من جهة أخرى ، لقد شكل الشاعر لوحة فنية إبداعية بلغة عباسية ، جعل من العناصر المشكلة للمعركة أدوات وألواناً مشكلة لهذه الصورة الفنية ، وإن كانت .حسب ظني .أن التشكيل سريالياً ، لأن الشاعر قام بتوظيف هذه العناصر التي استخدمت بالعربية لتشير إلى صورة جميلة في شكلها ومضمونها ، إلا أن الشاعر أخرجها من المضمون وإن كان الشكل واحد ، فالحناء صورة ايجابية ، وشكل من أشكال الفرح والتزيين ، وكذلك في مضمونها ، لكن الشاعر جعل من صورة الحناء الجميلة في شكلها تحمل مضموناً منافياً لهذا الشكل إذ جعلها تشير إلى رؤوس المقاتلين وقد خضبت بدمائها رؤوس الأسنة ، أي أنه مشهد من مشاهد القتل ، وقد جاء الانحراف اللغوي ليبيّن لنا كيف الأسنة في

(1) عبدو بدوي ، أبو تمام وقضية التجديد في الشعر ، ص 168.
(2) منير سلطان ، تشبيهات المتنبي ، ص 360.
(3) المرجع السابق ، ص 18.
(4) أبو تمام ، الديوان ، ص 15.

الحروب كانت ممداً للدم الذي يشرب ، كناية عن كثرة القتل؟

لقد أخذ الشعر في العصر العباسي طابع الرسم حيث وضح فيه تماماً عنصرا الزمان والحركة [1] فالشاعر يصور المعركة محدداً مكانها وجاعلها بين حيطانها ، أي أن المعركة كانت في مدينة وهذه إشارة منه إلى مقدار ما لقي الفارس من صعوبة في نزع الانتصار ، ثم بدأ برسم هذه الصورة حركياً من خلال تصويره لمشهد القتلى وهم مجعدلون في ساحة المعركة ، وقد خضّبت ذوائبهم بالدم وقد خص جيش العدو بهذا المشهد الذي أبرز ألوانه في البيت الثاني ، حينما قال بسنة السيف لاسنة الإسلام ، وقد برزت هذه الروح العباسية في قوله:[2]

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحىً يَشُلّه وسْطها صبحٌ من اللّهب

حتى كأن جلا بين الدجى رغبت عن لونها وكأن الشمس لم تغب

فالشمسُ طالعةٌ من ذا وقد أفلتْ والشمس واجبة ولم تجِبِ

لو نظرنا إلى توظيف أبي تمام للتضاد في رسم لوحته الشعرية ، وأثرها في شاعرية الصورة لأدركنا مقدار تأثر الشاعر العباسية بالحياة العلمية العباسية ، فالشاعر يصور ليل المكان بعد المعركة وقد أصبح ضحى ، فليل المكان أصبح ضحى بالانتصار فالتضاد متمثل ببهيم الليل ، وربما استخدمه الشاعر ليشير إلى الهزيمة ، فلا شك أن الصورة التي تتشكل في ذهن المهزوم هي صورة الظلمة ، وهذه عكس الصورة التي تتشكل على مخيلة المنتصر ، فهي وإن كان الزمان ليلاً ، فإن جمال الانتصار يحوله إلى ضحى. وقد بيّن أبو تمام أن هذا الضحى هو ضحى ناتج عن اللهب الذي خلفته المعركة في هذا المكان ، وقد بالغ في ذلك ، فقال وكأن الليل الذي يرتدي الأسود من الثياب راح يرغب عن هذا اللون ، ويريك من سروره أن الشمس .شمس الانتصار .قد رغبت عن المغيب بسبب اشتعال نار الحرب ، والتضاد عنده أيضاً حينما قال: والشمس واجبه غير بادية على الرغم من وجودها ، فهي محتجبة بسبب دخان المعركة الذي تصاعد فأخفاها.

لقد شكل أبو تمام لوحته بطريقة معقدة استمدها من الجانب الهندسي الذي يعبر عن الحضارة الجديدة ، بالإضافة إلى روح التجريد ، ومن هنا كانت وقفتهم عند الموسيقى اللفظية المتناسقة والموجودة أساساً في البديع[3] وعلينا أن نعترف بأن اللغة ليست ألفاظاً تنطق بل هي رموز تحمل تاريخ المجتمع وقيمه

(1) عبدو بدوي ، أبو تمام وقضية التجديد في الشعر ، ص11.

(2) أبو تمام ، الديوان ، ص 15.

(3) انظر:عبدو بدوي ، أبو تمام وقضية التجديد في الشعر ، ص 167.

وعاداته وتقاليده ومشاعره ، ومن هنا تكتسب اللغة حياتها ونموّها وتطورها [1] ومن هنا اتخذت المفردات»أبعاداً أعمق ومعاني أبعد وخيالاً أرحب ، وظلالاً وجمالاً ورمزاً [2]

لقد انعكست طبيعة الحياة الحضارية الراقية على هندسة اللغة العباسية وهذه الهندسة اللغوية لا بد أنها مستمدة من طبيعة الفن المعماري العباسي ، أو هندسة الديكور مثلاً بتزيين جدران المنازل ، ناهيك عن البيئة العلمية التي بدأت تأثر على معاني الشاعر وصوره ، ولا عجب إذا لمست هذا الإبداع بفن الخمريات وبسواه من فنون العصر العباسي كالكتابة والرسم بكل أنواعه[3] ، وبما أن الشعر أحد هذه الفنون فلا بد أنه قد استفاد من هذا الفن الإسلامي ، ومن هذه البيئة البديعية لفظاً ومضموناً ، يقول أبو تمام:[4]

عنبيةٍ ذهبيَّةٍ سبكت لها	ذهب المعاني صاغه الشعراء
صعبت وراض المزاج سيء خلقها	فتعلمت من حسن خلق الماء
خرقاء يلعب بالعقول حبابها	كتلاعب الأفعال بالأسماء
وضعيفة فإذا أصابت فرصة	قتلت كذلك قدرة الضعفاء
جهمية الأوصاف إلاّ أنهم	قد لقبوها جوهر الأشياء
وكأن بهجتها وبهجة كأسها	نار ونو قيّدا بوعاء
أو درةً بيضاء بكر اطبقت	حملاً على ياقوتةٍ حمراء
يخفي الزجاجة لونها فكأنها	في الكف قائمة بغير إناء
ولها نسيم كالرياض تنفست	في أوجه الأرواح بالأثراء
ومسافة كمسافة الهجر ارتقى	في صدر باقي الحب والبرحاء

لقد تجلت البيئة العباسية في اللوحة الخمرية أولاً ، ثم باللغة التي راحت تحاكي البيئة البغدادية ولا سيما البيئة التزيينية أو الطبيعية ، وهذا يظهر من خلال التشخيص الذي كان يزين الجدران والمباني ، والذي دخل فن صناعة

(1) منير سلطان ، تشبيهات المتنبي ومجازاته ، ص 360.361.
(2) انظر:المرجع السابق ، ص473.
(3) انظر:إيناس حسني ، التلامس الحضاري الإسلامي.الأوروبي ، عالم المعرفة ، ع 366 ، أغسطس ، 2009م ، ص7.
(4) أبو تمام ، الديوان ، ص 11.

الكتَّاب ، وأصبح يعرف بفن المنمنمات .[1]

فالمعاني ذهب صيغت من قبل الشعراء تماماً كالبيت العباسي الذي زُين بالأقمشة الموشاة بالذهب[2] ، فاتخذ من الجمال لغة صاغ مفرداتها عبر تلك الرؤية الجديدة ، محاولاً أن يوجد لنفسه فناً ذا خصوصية ، لا تحكمه غير شروط عالمه الذاتي ، وتلك .لا شك .كانت ثورة على القيم الفنية السائدة آنذاك .[3]

وترى إلى جانب الهندسة العباسية في المقدمة الخمرية أيضاً أثراً للتشخيص ، فحين تقرأ المعاني التي صاغ منها معاني الخمرة ، يجعلك تشعر وكأنك تقف أمام إنسان يحمل في ثناياه صفاته ومشاعره[4] ، وهذا الصفات والرقي بالمشاعر لا شك أن الشاعر قد صاغها بمساعدة الحياة التي شكلت هذا الفكر الراقي عند الشاعر الذي تثقف بعلوم عصره ، فلم يكتف بالموهبة التي كانت أحد أهم أركان الشعر في العصور السابقة للعصر العباسي.

وقد بدت ثقافة الشاعر اللغوية والحضارية من خلال المعاني التي صاغها ، مستفيداً من علوم عصره ، فالعصر العباسي عصر ارتقت فيه علوم العربية ، وعرف هذا العصر بوجود علماء لغة كبار ، دفع وجودهم نحو الانشغال بعلوم العربية ، وهذا واضح من خلال قول الشاعر كتلاعب الأسماء بالأفعال ، وكذلك يبدو تأثره بما شاع بالفكر العباسي ولا سيما عند الشعوبيين من معاني دينية قديمة تمثلت بآلهة النار والنور ، وقد تزينت هذه المعاني بالرياض العباسية التي مدت الشاعر العباسي بهذه المعاني التي عدت ثورة على المعاني العربية القديمة ، كقوله مثلاً:[5]

يا خاطباً مدحي إليه بجوده	ولقد حطبت قليلة الخطّاب
خذها ابنة الفكر المهذب في الدجى	والليل أسود رقعت الجلباب

لقد أصبح المدح أنثى تخطب ، ومهرها الجود ، وهذه الأنثى ليست كغيرها من المطلوبات ، فهي غالية ، لأجل ذلك كان خطّابها أقلاء ، وهي ليست سهلة عند صاحبها ، فهي بناء أقامه على الفكر المهذب الذي راح صاحبه يقيم الليل باحثاً

(1) إيناس حسني ، التلامس الحضاري الإسلامي الأوربي ، ص 7.
(2) انظر: شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، عالم المعرفة ، مصر ، ط2 ، ص 67.
(3) إيناس حسني ، التلامس الحضاري الإسلامي الأوربي ، ص 9.
(4) أنظر: منير سلطان ، بديع التراكيب في شعر أبي تمام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ط4 ، 2002م ، ج2 ، ص130.
(5) أبو تمام ، الديوان ، ص 25.

عنه حتى خرج بهذه المعاني الجميلة ، فالشعر إذاً كالبناء يحتاج إلى تعب ومشقة وإعمال فكر ، فهو ليس موهبة خالصة وإنما هذه الموهبة قد غذّيت بعلوم العصر وفنونه ، وهكذا نجد نمطاً فنياً جديداً يختلف عن النمط الذي ساد العالم الإسلامي في ظل الخلافة الأموية[1] «حيث بدأت تظهر الملامح الفنية العراقية القديمة التي تمت خلال مرحلة الفن الساساني ، وكانت هي البذرة الأولى التي ترعرعت في سامراء و امتدت غرباً إلى مصر [2] وعلى مستوى تخطيط المدن .وأثر هذا الفن على هذا البديع اللغوي الذي شاع في هذا العصر . ظهر لأول مرة التصميم الدائري في العصر الإسلامي ، حيث كلف الخليفة أبو جعفر المنصور مهندساً فارسياً بمهمة تشييد عاصمته الجديدة ، فاختار لها تصميماً على شكل دائرة كاملة [3] وينسب التصميم الدائري لبغداد إلى العمارة الإسلامية [4].

وأخيراً لقد عمد العباسي شاعر أو مهندس أو سواهما إلى الغرابة ، لأن الشيء من غير معرفة أغرب ، وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف ، وكلما كان أطرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبدع [5] لأجل ذلك شاع هذا الفن المبدع الغريب في هذا العصر.

.بديع ابن المعتزوالبيئة :

يعد ابن المعتز من الشعراء العباسيين الذين تأثروا بهذه البيئة ، كيف لا وهو أمير يعيش في خضم الرفاهية العباسية من قصور وزهور وأنهار وجنات وحرير ؟ فقد لعبت البيئة الملوكية التي نشأ فيها ابن المعتز دوراً في هذه الطريقة التي أبدع فيها ، والتي أمدته بالكثير من التشبيهات[6].

أما من حيث المعجم الشعري فقد بقي ابن المعتز مسايراً للاتجاه العام الذي غلب على الشعر العباسي من الليونة ورقة المعاني ودماثتها وبعدها عن

(1) يحيى الوزيري ، العمارة الإسلامية والبيئة ، عالم المعرفة ، ع 304 ، يونيو . 2004 ، ص 68 ، وانظر كذلك أبو صالح الألفي ، الفن الإسلامي ، دار المعارف ، القاهرة ، ص172.

(2) يحيى الوزيري ، العمارة الإسلامية و البيئة ، ص68.

(3) يحيى الوزيري ، العمارة الإسلامية والبيئة ، ص 69.

(4) المرجع السابق ، ص 69.

(5) الجاحظ ، البيان والتبيين ، تقديم علي أبو ملحم ، منشورات وزارة الثقافة الأردنية ، 2009م ، ج1 ، ص 93.

(6) انظر: توفيق الفيل ، القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي ، مطبوعات جامعة الكويت ، الكويت ، 1984م ، ص33.

المعجم القديم[1] ، أنظر إليه مثلاً في قوله:[2]

أين التَّورُّع من قلب يهيم إلى	حانات قَطْرَ بُلٍ والعودِ والناءِ
وصوت فتانة التغريد ناظرة	بعين ظبي تريدُ النوم حوراءِ
جرّت ذيول الثياب حين مشت	كالشمس مسبلة أذيال لألاءِ
وقرع ناقوس ديريٍ على شرفٍ	مسبّحٍ في سواد الليل دعّاءِ
وكأسٍ حيريةٍ شكت بمبزلها	أحشاء مشعرةٍ بالقار جوفاء
جادت لها حقل الأنمار يانعة	بطيرَ ناباذ أو كوثي وسوراء
ترفو الظلالَ بأغصان مفرطةٍ	سود العناقيد في خضراء لفاءِ
أجرى الفرات إليها من سلاسله	نهراً تمشي على جرعاء ميثاءِ

إننا لا نكاد نجد لفظاً غريباً باستثناء بعض الأسماء التي تشير إلى مدن ليست عربية ، والملمح الثاني من ملامح البيئة العباسية في الأبيات السابقة ، تتمثل بتصوير الحانات وما فيها من لهوٍ وغناء بصوت مغنية فتانة الجمال والصوت ، وقد جعل جمال الظبية الحوراء التي أصابها النعاس معادلاً موضوعياً لهذه المغنية ، ثم استرسل في توصيف هذه الجميلة فصورها بثوبها التي تجره خلفها ، وكأنها ملكة تشبه الشمس في علوها وترفعها وجمالها وتلألئها ، فأين هذه المعاني وأين بيئة ابن المعتز؟ ألا نجد البيئة الأميرية تتلألأ في وصفه واختياره للتشبيهات؟[3]

ثم يتساءل عن جلساته وسمره في هذه الحانات على نغم قرع قوس عابد قائم في سواد الليل يدعو ربه ، وكذلك البيئة العباسية تظهر من خلال هذه الصورة المتناقضة ، فبينما العباد يتهجدون ويعبدون ، نجد الطبقة المترفة تقيم الليل بشرب الخمر وسماع الغناء ، وهذه صورة من صور المجتمع العباسي[4]ثم يذهب إلى تصوير هذه الخمرة والبيئة التي أحضرتها ، وهي بلا شك فارسية ، وهذه صفة الخمرة في هذا العصر.

وقد فطن ابن الرومي إلى ما لبيئة ابن المعتز من الأثر في تشكيل فنه ، حين

(1) انظر:المرجع السابق ، ص 233.

(2) ابن المعتز ، ديوان ابن المعتز ، صنعه: أبو بكر الصولي ، تحقيق: يونس السامرائي ، عالم الكتب ، بيروت ، ط1 ، 1997 ، ص 7.6.

(3) انظر توفيق الفيل ، القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي ، ص233.

(4) انظر:شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ص71 ، و انظر كذلك: شوقي ضيف العصر العباسية الثاني ، ص69.68.

طلب إليه أن يأتي بتشبيهات ابن المعتز في وصف الهلال ، فصاح ابن الرومي وغوثاه ، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذاك إنما يصف ماعون بيته ،

وأنا أي شيء أصف[1].

لقد كانت حياة ابن المعتز بالغناء واللهو ، حتى راح يملُّ من هذا الحياة ، وقد صور لنا هذا البيئة بنفسه حينما قال:[2]

ذهبت لذّة الحياة فما يُعـ جبني روقةٌ ولا أدباءُ

لا ولا في الغناء لذة عيش ولقد كان جُلّ عيشي الغناءُ

ليس لي لذةٌ سوى بنت كرم لم يشبْها قطُّ ماء

تبين لنا هذه المقطوعة حياة ابن المعتز وبيئته بصدق ، فقد راح يملُّ من حياة الشعر والأدباء ، وكذلك الأمر بالنسبة للغناء ، فهو في هذه المعاني يبين لنا مقدار خفض الحياة التي يعيشها ، وهذا يعيدنا إلى قول ابن الرومي السابق ، حينما قال إنما يصف حياته ، وليس هذا المهم بقدر ما هو مهم وصفه للبيئة العباسية عامة وبيئته خاصة حينما قال وكانت معظم حياتي في الغناء ، والإنسان لا يمل طراز حياة إلاّ إن صارت بالنسبة له سرمدا والنفس بطبيعتها تحب التجديد ، والغريب أن جديد ابن المعتز كان في الخمر ، فقد وصفها ووصف كل ما يتعلق بها ، وكانت أوصافه لها تأتي في مقطعات أو قصائد أو أجزاء من قصائد ، [3] فخمرته هذه صرفة لم تمزج بماء.

وقد صور لنا حال المجتمع العباسي في شهر الصيام ، وما فيه من التزام بالصلاة والصيام وأخلاق الإسلام ، حتى إذا انقضى شهر الصيام وجدناه يعود إلى حياته المعتادة ، وهذه الطبيعة مثلاً لا نجدها في العصور الإسلامية السالفة ، ذلك لأثر الحياة الفارسية بالحياة والبيئة العباسية ، يقول ابن المعتز:[4]

أهلاً وسهلاً بالناي والعود وكأس ساقٍ كالغصن مقدود

قد انقضتِ دولة الصيام وقد بشر سقم الهلال بالعيد

يتلو الثريا كفاغرٍ شره يفتح فاه لأكل العنقود

تتجلى البيئة العباسية في اللغة ، فالصيام دولة ، وحتى دولة الصيام فلا

(1) انظر: توفيق الفيل ، القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي ، ص 234.
(2) ابن المعتز ، الديوان ، ص15.
(3) انظر: توفيق الفيل ، القيم المستحدثة في الشعر العباسي ، ص 234.
(4) ابن المعتز ، الديوان ، ص 95.94.

بد أن يصبح البدر هلالاً إلاّ أن الهلال أصبح سقيماً عند ابن المعتز فقوة الدولة مرتبطة بحجمها وانقضاء الصيام مرتبط بضعف وسقم الهلال ، وهذه الصورة استقاها ابن المعتز لمعناه المراد من سقم الهلال وذهاب دولة الصيام من بيئته المترفة التي تستثقل الصيام.

إن العلاقة بين دولة الصيام وابن المعتز علاقة عكسية ، فكلما كانت دولة الصيام قوية كان طلب ابن المعتز للشهوات سقيم ، وكلما سقم الهلال كان ابن المعتز قوياً ، وبذلك يكون عنده العيد عيدين ، الأول عيد المسلمين ، والثاني عيد ابن المعتز ممثلاً بعودته إلى شهواته من غناء وشراب وساق كالغصن المقدود.

ويبني علاقة غاية في الروعة حينما يصور هذا الهلال السقيم بالفم ، والعلاقة بينهما علاقة طردية ، فالهلال نصف دائرة وهذا الآكل الشره يفتح فمه بشدة ، فحركة فم الشره تشبه نحول الهلال ، وعلى ما يبد أن هذا هو حال ابن المعتز ، فأظنه هو الشره الذي يفتح فمه منتظراً سقم الهلال لتذهب دولة الصيام ، ويلتهم هو العنقود أو ابنه العنقود[1] وهذا الذي أشار إليه في البيت الأول.

لقد أكثر ابن المعتز من وصف البساتين التي هي جزء من بيئته في القصور ، وربما انعكست هذه لا على ألفاظه فحسب بل ربما على صياغته من حيث البديع ، يقول ابن المعتز[2]

أما ترى البستان ونشر المنثورُ برداً أصفرا
وضحك الورد إلى واعتنق القَطْرَ اعتناق وامق
في روضة كحلة وخرّم كهامة الطاووس
وياسمين في ذُرى منظما كقطع العقيان
والسَّرُ مثلُ قضبِ قد استمدمن تربٍ ندِى
على رياض وثرىً وجدول كالمبردِ المجليّ
وفُرُج الخشخاش كأنه مصاحفٌ بيضُ الورقْ
حتْى إذا انتشرت وكاد أن ينأد ريّاً ساقُه

يبّين لنا ابن المعتز صورة من صور الطبيعة ، ولا سيما في موسم الربيع ، فهو يقف أمام مشاهد الطبيعة ، عاكساً السمة الحضارية في عصر الشاعر[3]

(1) انظر:المرجع السابق ، الديوان ، ص 95.
(2) المرجع السابق ، ص 490. 491.
(3) انظر توفيق الفيل ، القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي ، ص 241.

والبديع أنك تجد بديعاً في تشكيل المعاني حينما يذهب إلى أن الورد يضحك إلى الشقائق وكأن بينهما علاقة توافق ، فعلاقة ابن المعتز مع بيئته كعلاقة الورد بالشقائق ، وانظر إليه بعد هذه الاستعارة البديعة يعود إلى التشبيه الغريب حينما يجعل من الروضة حُلّه ، وليست أيّ حلّة ، وإنما حلت عروس ، وهذا المعنى لا بد وأن نفس ابن المعتز المرحة المترفة قد لعبت دوراً في تشكيل خيوطها ، كيف لا؟ وهو أمير قد جعل من زهور الروضة ثوباً جميلاً قد صيغ لعروس ، وله خرّم كهام الطاووس ، وهذه الصورة أيضاً صاغها خيال ابن المعتز الأمير ، وقد كان اختياره للطاووس موافقاً لمكانته ، فبينه وبين الطاووس تلاق ، فكلاهما يشعر بمكانته وبفضله عمن سواه بما يلبس ، واللباس الخارجي ليس شرطاً ، فربما يكون اللباس الاجتماعي.

ثم يصور لنا ابن المعتز هذا المشهد الطبيعي لهذا البستان في فصل الربيع ، وما فيه من ياسمين وقد تسلق هذا الياسمين على ذرى الأغصان ، فإنك لا تجد جملة عنده إلاّ وقد بناها على اللغة العباسية البديعية ، وانظر إلى السرو وكيف استحال إلى الزبرجد؟ فالدّر والذهب وبقية الجواهر من الأمور التي تدور في كثيرٍ من تشبيهات ابن المعتز.[1]

ثم يختم مقطوعته بتصوير هذه الروضة الغنية بتربتها ، وبالجدول الذي يغذيها وهو لامع كأنه مجلّي ، وفرج الخشخاش كأنها مصاحف ذات ورق ابيض ، وهذا البستان انتشرت أوراقه واشتدت سيقانه.

لقد لعبت بيئة ابن المعتز الصغيرة والكبيرة دوراً كبيراً في تشكيل المعنى عند ابن المعتز فما تكاد تقرأ قوله:[2]

يصوغ عليها الماء شباك فضةلها حَلَقٌ بيضٌ تحلُّ وتعقد إلاّ وتقول هذا عباسي أولاً ثم هذه المعاني لا يصوغها إلاّ من عاش فيها ، فيكون ابن المعتز بذلك قد استحال الشعر عنده إلى فنٍ ارستقراطي متميز[3]

الخاتمة:

لقد راح الشاعر العباسي يحاكي بيئته بمختلف أشكالها ، لا الطبيعة فحسب ، وإنما العلمية والثقافية والحضارية والمعمارية والفلسفية حتى إنك لا

(1) المرجع السابق ، ص 241.
(2) ابن المعتز ، الديوان ، ص 93.
(3) انظر:توفيق الفيل ، القيم المستحدثة في الشعر العباسي ، ص 245.

تكاد تجد بيتاً إلاّ وفيه سمة من سمات الحضارة العباسية ، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على تأثر الشعر العباسي بلغته ومعانيه ودلالاته ببيئته حتى أتي الشعر العباسي قطعة من قلب البيئة العباسية ، فما تكاد تقرأ أبا تمام حتى تجد أثر صنعته وفلسفته ظاهرتين في شعره ، وما تكاد تذهب إلى ابن المعتز حتى تجد البيئة العباسية العامة وبيئة ابن المعتز الخاصة ماثلة بين يديك ، ولا سيما أنه أمير وأن لغته لا تقل عن لغة أبي تمام من حيث التشبيهات الاستعارات والأوصاف ، وعندها أمن الغرابة أن نجد لغة عباسية خاصة ، وأدباً عباسياً متميزاً يطلق عليه المحدث أو البديعي؟

قائمة المصادر والمراجع

1. احمد الشايب ، العامل السياسي في أدب العصر العباسي الأول ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ، 1960م.
2. أمين أبو الليل ، محمد ربيع ، العصر العباسي الأول ، دار الوراق للنشر والتوزيع ، عمان ، 2009م.
3. إيناس حسني ، التلامس الحضاري الإسلامي .الأوروبي ، عالم المعرفة ، 3664 ، أغسطس ، 2009م.
4. أبو تمام ، ديوان أبي تمام ، تحقيق: شاهين عطية ، مراجعة: يونس الموصلي ، مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط1 ، 1968م.
5. توفيق الفيل ، القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي ، مطبوعات جامعة الكويت ، الكويت ، 1984م.
6. الجاحظ ، البيان والتبيين ، تقديم: علي أبو ملحم ، منشورات وزارة الثقافة الأردنية ، 2009م.
7. الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، تحقيق: عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، 1991م.
8. الجاحظ ، البخلاء ، اعتني به: مصطفى شيخ مصطفى ، مؤسسة الرسالة ناشرون ، بيروت ، 2006م.
9. جلال الدين السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق: ياسر رمضان ، محمد سيف ، دار عالم الثقافة للنشر والتوزيع ، عمان ، 2006م.
10. جلال الدين السيوطي ، المستظرف من أخبار الجواري ، تحقيق: احمد عبد الفتاح تمام ، شركة الشهاب ، الجزائر ، 1991م.
11. حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، منشورات المكتبة البوليسية ، بيروت ، ط2 ، 1987م.
12. سامي يوسف أبو زيد ، الأدب العباسي ، دار المسيرة ، عمان ، 2011م.
13. شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، دار المعارف ، مصر ، د.ت.
14. شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، دار المعارف ، القاهرة ، .ط2 ، د.ت.
15. أبو صالح الألفي ، الفن الإسلامي ، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت.
16. طه حسين ، من حيث الشعر والنثر ، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت.
17. أبوالعتاهية ، ديوان أبو العتاهية ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 1964م.

18. عبدو بدوي ، أبو تمام وقضية التجديد في الشعر ، الهيئة المصرية العامة 1985م
19. محمد الخضري ، الدولة العباسية ، مكتبة الإيمان ، المنصورة ، ، د.ت.
20. مختار عطية ، علم البديع ودلالات الاعتراض في شعر البحتري ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، مصر ، د.ت.
21. ابن المعتز ، ديوان ابن المعتز ، صنفه: أبو بكر الصولي ، تحقيق: يونس السامرائي ، عالم الكتب ، بيروت ، ط1 ، د.ت.
22. مصطفى بشير القط ، مجالس الأدب في قصور الخلفاء العباسيين ، دار اليازوردي العلمية للنشر والتوزيع ، عمان ، 2009م.
23. ابن منظور ، لسان العرب ، دار جاد ، بيروت ، د.ت.
24. منير سلطان ، تشبيهات ومجازاته ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، مصدر ، د.ت.
25. منير سلطان ، بديع التراكيب في شعر أبي تمام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ط4 ، 2002م.
26. يحيى الوزيري ، العمارة الإسلامية والبيئة ، عالم المعرفة ، ع 304 ، يونيو ، 2004م.
27. يوسف بكار ، نحت وتراث فارس ، منشورات المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلاميةالإيرانية ، دمشق ، 2000م .